﴿يُولِجُ ٱلَّيۡلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيۡلِۚ وَهُوَ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ٦﴾ [الحديد: 6]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قبلَها:

لـطـائـف التّصريف الرّبّانيّ في الظّلام والضّياء

لمّا قال اللّهُ سبحانه: ﴿وَإِلَى ٱللَّهِ تُرۡجَعُ ٱلۡأُمُورُ﴾؛ أي: أنَّ جميع الموجودات عائدة إليه حسًّا بالمعاد يوم القيامة، ومعنًى بالخلق والإفناء؛ أقام الدّليل على بدء الخلق وإعادته بأبلغ بيان وأحسنِه، فقال عزّ من قائل: ﴿يُولِجُ ٱلَّيۡلَ فِي ٱلنَّهَارِ﴾؛ أي: يُدخِل ظلامَ اللّيل في ضياء النّهار إدخالًا لطيفًا، فيُذْهِبه قليلًا قليلًا حتّى يضمحّلَّ بعد كماله، ويختفي بعد ظهوره وحلوله، فيُخيّم الظّلام حيث كان النّور ساطعًا، ثمّ يَعْكِسُ الحال فيَمْلَأ الكون ضياءً بعد تلك العتمة، ثمّ يولِجُ النَّهار الذي انتشر نوره في الآفاق، وتلألأت أنواره في الأفق في اللَّيْلِ الذي كان غائبًا في علمه الأزليّ، فإذا هو يَعودُ كما بدأ، دليلًا على قدرته التي لا تُعجزها الإعادة بعد الإبداع[1].

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿يُولِجُ﴾: الولوج؛ بمعنى: الدّخول، ومنه: الوليجة؛ أي: البطانة، سمّيت كذلك - وهي مشتقّة من الولوج - لأنّهم يتّخذون "بينَهُم وبين الكافرين دخيلة مودَّة"، ومنه: الولاج؛ وهو الغامض من الأرض والوادي[2]. و"المعنى المحوريّ: الدّخول في فجوة كثيفة الإحاطة تُخفي وتستر، كالكهف، والكُناس، والغامضُ من الأرض"[3]، ومعنى الفعل ﴿يُولِجُ﴾: يُدخل اللّيل في النَّهار، ويدخل النّهار في اللّيل؛ فينقص هذا، ويزداد ذاك[4].

(1) البقاعي، نظم الدرر: 19/ 261.
(2) ابن دريد، جمهرة اللغة، والأزهري، تهذيب اللغة، وابن فارس، مقاييس اللغة، والزبيدي، تاج العروس: (ولج).
(3) محمد جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (ولج).
(4) الفيروزآبادي، بصائر ذوي التمييز: 5/ 276.

2) ﴿بِذَاتِ﴾: ذاتُ: تأنيث (ذو) بمعنى: صاحب، و(ذات) بمعنى: صاحبة، وقد تأتي بمعنى: حاجةٍ[1]، و(ذات الصُّدور): أسرار النُّفوس وخباياها، أو الضَّمائر والنّيّات[2]، واستشهد صاحب الكشّاف عند قوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٣٨﴾﴾ [فاطر: 38]، على أنَّ (ذات) مؤنث (ذو)، وهو موضوع لمعنى: الصُّحبة؛ وذات الصُّدور: مضمراتُها؛ لأنَّ المضمراتِ تصحب الصُّدور[3]، وكما يُقال للحال التي بين النّاس: ذات البين، ويُقال للأسرار: ذاتُ الصُّدور[4].

3) ﴿ٱلصُّدُورِ﴾ الصَّدر: أعلى مقدَّم كلِّ شيء، وصدرةُ الإنسان: ما أشرَفُ من أعلى صدرِه، وهو: الجارحة، وليس في القرآن من هذا التَّركيب إلّا (يُصْدِر) و(يَصْدُر)، ثُمَّ (صَدْر) الإنسان، وجمعه: (صدور)[5]، ومعنى ﴿وَهُوَ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ في الآية الكريمة: "وهو ذو علم بضمائر صدورِ عباده، وما عَزَمَتْ عليه نفوسُهم من خيرٍ أو شرّ، أو حدّثت بهما أنفسهم، لا يخفى عليه من ذلك خافية"[6].

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

بديع التّدبير فائق التّقدير في تجلّيات الإيلاج بين اللّيل والنّهار

تشير الآية الكريمة إلى أنّ الله سبحانه بفائق قدرته يُدخل ظلمةَ اللّيل في ضياء النّهار إدخالًا لطيفًا، فإذا أقبل اللّيلُ؛ أدبَرَ النّهارُ، وإذا غشي الظَّلام؛ انجلى الضّياء. ثُمَّ يُدخل نورَ النّهار في دلجة اللّيل، فإذا بزغ الصّباح ولَّى الظّلام. وللإيلاج معنىً آخرُ بديعٌ، وهو أن يزيدَ في اللّيل من النّهار، وفي النّهار من اللّيل، فيصير اللّيلُ أطولَ ما يكون ويقصر النّهار؛ يتقلّبون فيها بتقدير العزيز العليم، ذلك أنّه

(1) أبو حيان، تحفة الأريب: (ذوي).
(2) أحمد مختار عمر، معجم اللغة العربية المعاصرة: (صدر).
(3) الزمخشري، الكشاف: 3/ 616.
(4) المطرزي، المغرب في ترتيب المعرب: (بين).
(5) محمد جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (صدر).
(6) ابن جرير الطبري، جامع البيان: 23/ 171.

سبحانه المطَّلع على ما تُكنُّه الضّمائر، خفيِّها وجليِّها، من خير أو شرّ، وإخلاص أو رياء، لا يخفى عليه شيءٌ في الأرض ولا في السّماء[1].

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

موقع قوله: ﴿يُولِجُ ٱلَّيۡلَ﴾ ودلالته:

تقليب اللّيل والنّهار شاهدٌ على تمام القَهْرِ والاقتدارِ، وتأكيدٌ لِمُلْكِ العزيزِ الجبّار

قوله تعالى: ﴿يُولِجُ ٱلَّيۡلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيۡلِۚ﴾ إمّا أن يكون تأكيدًا لِما تقدّم من إثباتِ مُلْكِه للسَّماوات والأرض؛ إذ إنّ هذا الإيلاج لا يتحقّق إلّا بطلوع الشَّمس وغروبها، ولا شكَّ أنّ للسَّماء والأرض مدخلًا ظاهرًا في هذين الحَدَثَيْن، فاختير أسلوبُ الفصل هنا؛ لإبراز هذا المعنى[2]، وتوكيدِ ارتباط التَّصرُّف الكونيِّ بإرادة المالك القادر، الذي يُدبّر الأمر بحكمةٍ وعلم.

وإمّا أن يكون على وجه الاستئنافِ[3]، منفصلًا عمّا سبقَهُ لفظًا من قوله تعالى: ﴿لَهُۥ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرۡجَعُ ٱلۡأُمُورُ﴾.

ويجوزُ أن يكون الفصلُ لكمال الاتِّصالِ؛ فالآيةُ في موقعِ بدل الاشتمال منها، فتعاقُبُ اللّيل والنّهار من أبْيَنِ مظاهر تصرّف الله سبحانه في الكون، وتجلٍّ واضحٌ لمُلْكِه وسلطانه في السّماوات والأرض، بما فيه من انتظامٍ بديعٍ يُبصره الإنسانُ، ويشهد أثرَهُ في تفاصيل حياته اليوميَّة[4].

ويجوزُ كذلك أن يكون الفصلُ لكمال الاتِّصال؛ وذلك لِوُقوعِهِ بيانًا وتفسيرًا لمضمون قوله: ﴿وَإِلَى ٱللَّهِ تُرۡجَعُ ٱلۡأُمُورُ﴾؛ تذكيرًا للمشركين بأنَّ الله وحده هو المتصرِّف في أسباب الفناء والحياة، لا ما يظنّونه من تأثير الزَّمان وتعاقُبِ اللَّيل والنَّهار. فقد كانوا يعتقدون

(1) السمرقندي، بحر العلوم: 3/ 401 - 402.
(2) القونوي، حاشية على تفسير البيضاوي: 18/ 440.
(3) الدرويش، إعراب القرآن وبيانه: 9/ 453.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 27/ 366.

أنَّ الدَّهر - بما فيه من ليلٍ ونهار - هو الفاعل في مصائرهم، كما قال الأعشى[1]:

ألمْ ترَوا إرمًا وعادًا *** أفناهُما اللّيلُ والنّهارُ

وكما حكى اللهُ عنهم قولَهُم: ﴿وَمَا يُهۡلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهۡرُۚ﴾ [الجاثية: 24]، فجاء التَّصريح بقوله: ﴿لَّهُۥ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرۡجَعُ ٱلۡأُمُورُ﴾؛ ليُبْطِلَ هذا الزَّعمَ الباطل، ويؤكِّد أنَّ سُلْطانَ الله هو الحاكمُ المطلق، وأنَّ الزَّمان مظهر من مظاهر تصريفهِ، لا فاعلًا مستقلًا بذاته[2].

خَلْقُهُ برهانُ سلطانهِ، فَمِنْ تعاقب اللّيل والنّهار إلى توحيد القهّارِ

وإما أن يكون شِبْهَ كمالِ اتِّصالٍ؛ جاء استئنافًا بيانيًّا، وذلك أنَّه بعد أن قال سبحانه: ﴿لَّهُۥ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرۡجَعُ ٱلۡأُمُورُ﴾، وهي آية تقرّر جلالَ صفاتهِ وكمالَ تدبيره؛ كأنّ السّامع يسألُ: ما الدّليل على هذا الملك والسّلطان؟ فجاء البيان الجليل في صورة مشهدٍ كونيّ مهيب، يكشف عن تعاقب اللّيل والنّهار بنظام محكَم بديع، يدلّ دلالة قاطعة على عظمة الخالق وتفرّده، ليوقِنَ القلبُ بأنّ اللّه هو الإله الواحد[3].

دلالة التّعبير بالفعل ﴿يُولِجُ﴾ مادّة وصيغة:

التّغلغلُ حتّى الغياب في تعاقب اللّيل والنّهار

عُبِّر بالولوج ﴿يُولِجُ﴾ دون الدّخول؛ لأنّ الولوج لا يقتصر على مجرّد الدّخول، وإنّما يحمل في طيّاته معنى التّغلغل والامتزاج إلى حدّ الغياب والمحو، وهو ما يليق بطبيعة تعاقب اللّيل والنّهار؛ إذ لا يكتفي أحدُهما بأن يحُلَّ محلّ الآخر، بل يتوارى فيه ويندسّ حتّى يُغَيِّبَه[4]. وجاء التّعبير بالفعل المضارع ﴿يُولِجُ﴾ مع لفظتي ﴿ٱلَّيۡلَ﴾ و﴿ٱلنَّهَارِ﴾ للدّلالة على الاستمرارِ والتّجدّد؛ إذْ إنّ تعاقب اللّيل

(1) الأعشى، ديوانه، ص: 281.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 27/ 366 - 367.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 22/ 281.
(4) البقاعيّ، نظم الدّرر: 19/ 261.

والنّهار وتداخلَ أحدِهما في الآخر هو مشهَدٌ يتكرّر باستمرار، لا يقتصر على الفصول، بل يتجدّد كلّ يوم[1]، ممّا يعكس بديعَ النّظام الكونيّ، ودقّة التّقديرِ الإلهيّ.

سرّ تقديم ﴿ٱلَّيۡلَ﴾ على ﴿ٱلنَّهَارِ﴾:

في بدء الظّلام دهشة ووقار؛ إذ كيف تُغشي دُجاه سَنا الأنوار

ورَد تقديم ﴿ٱلَّيۡلَ﴾ على ﴿ٱلنَّهَارِ﴾؛ لِما في بدء العتَمَةِ مِن دَهْشَةٍ وجلال؛ إذْ كيفَ لِسَوادٍ كثيفٍ أن يَطْغى على سُطوعِ الأنوار النّهاريَّة[2]، ويكسو وجه النّهار بوشاح من الظّلام صفيق؟! فابتداءُ المشهد باللّيل يُثير التّأمّل في قدرة الله الباهرة، حيث تنسَحِبُ الأنوار أمامَ زَحْفِ الظّلمة، في تتابعٍ مهيب يُجسّد الإعجاز في نظام الكون. وورد تقديم ﴿ٱلَّيۡلَ﴾ على ﴿ٱلنَّهَارِ﴾ هنا وفي عامّة القرآن الكريم؛ لأنّ اللّيل متقدّم في الوجود؛ إذ هو الأسبق زمانًا من حيث التّعاقب، وقد اتّفقت الشّرائع على اختلاف مِلَلِها ونِحلها على هذا التّقديم في الوجود[3].

دلالة التّعريف في ﴿ٱلَّيۡلَ﴾ و﴿ٱلنَّهَارِ﴾:

الـلّامُ للجنسِ المفيدِ العمومَ؛ في تَعاقُبٍ لا يَزولُ وتَقلُّبٍ لا يَحولُ

اللّام في ﴿ٱلَّيۡلَ﴾ و﴿ٱلنَّهَارِ﴾ لامُ الجنس؛ يُراد منها الدّلالة على العموم والشّمول؛ أي: كلّ ليل وكلّ نهار، لا ليلٌ بعينه ولا نهارٌ مخصوص، بل هو تتابع مستمرّ، واستبدال دائم، يُغيَّر فيه كلٌّ منهما بالآخر[4]، في حركة دائبةٍ لا تنقَطِع، تُظْهِرُ قدرةَ الله تعالى في تدبير الكون وتعاقب الأزمنة، وتعكس انتظامَ السّنن، واطّراد الحكمة في الخَلْقِ.

معنى ﴿فِي﴾ ودلالتُها ﴿فِي ٱلنَّهَارِ﴾ و﴿فِي ٱلَّيۡلِ﴾:

تعاقُبٌ بحكمةِ إيلاجٍ لخدمة الإنسان، وسكون لنماءِ الأكوان

﴿فِي﴾ حرف دالٌّ على الظّرفيّة[5] وارد للدّلالة الدّقيقة على التّداخل العميق بين الزّمنين، لا مجرد التّتابع بينهما، ففيه إدخالُ اللّيل

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 25/ 130، والآلوسيّ، روح المعاني: 11/ 353.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 21/ 185.
(3) ابن منظور، نثار الأزهار في الليل والنهار، ص: 10.
(4) الآلوسيّ، روح المعاني: 4/ 376.
(5) الدسوقي، حاشية الدسوقي على مختصر المعاني: 3/ 357.

وظلمته في نور النّهار، فيمتدّ بذلك جزءٌ من اللّيل في أجزاء النّهار، كما يحدُثُ في الصّيف، تحقيقًا لمصالح المعاش والعمل، وكذلك يُدخِل النّهار في اللّيل في الشّتاء، فيطول اللّيل بأجزاء من النّهار، رحمةً بالجسد والنّفس، وسكونًا للقوى النّامية كي تستعيدَ نشاطَها وتستعدّ لأداء وظيفتِها[1]. ويجوز أن يكون التّعبير بحرف الظّرفية ﴿فِي﴾ للإشارة إلى إحاطة علم الله تعالى بما يجري في طيّات اللّيل والنّهار من أعمال عباده، خيرها وشرّها، عدلها وبغيها[2].

بلاغة التّعبير بأسلوب المُقابلَة:

لّى تتجلّى بلاغة المقابلة في قوله تعالى: ﴿يُولِجُ ٱلَّيۡلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيۡلِۖ﴾، حيث يُعبّر هذا النّسق المتقابلُ عن سنّة إلهيّة جارية تقوم على تداول المتضادّات، وتغليب أحد الطَّرفين حينًا على الآخر، في مشهد بديعٍ من التّوازن والتّعاقب.

تـداول الأضـداد مـــن مـظـاهـر الرّبوبيّة؛ في ليل ينسلّ من نهار، ونهار ينبثق من ليل ستّار

وفي التّعبير بالولوج هنا: إدخالُ أحد اللّونين في الآخر إشارةً إلى هذا التّداخل المُحْكَم، إمّا بزيادة أحدِهما ونقصانِ الآخر، أو بحلول أحدهما في موضعِ صاحِبِه؛ ليكون اللّيل والنّهار مثالًا ظاهرًا لأوضح المخلوقات وأجلاها[3]. وقد صيغ هذا التّعبير البليغُ على وجهِ المثل الحيّ على تداول الأزمنة، وتغليب أحد الضِّدّين على الآخر؛ فمرّة يمتدّ سلطان النّور ويقصر ظلّ الظّلام، ومرّة يطول ليل السّكون، ويضيق نطاق النّهار، وقد جاء هذا التّصوير في سياق يجسّد شهرة التّضادّ بين النّور والظّلمة، واللّيل والنّهار[4]، ليرسّخ في الذّهن مشهدًا متكرّرًا من قلب الموازين، وتبدّل المدد، في نظام دقيق يشهد بعظمة الخالق القدير.

(1) النخجواني، الفواتح الإلهية: 2/ 187.
(2) ابن عجيبة، البحر المديد: 3/ 549.
(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 6/ 117.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 17/ 314.

وتتجلّى بلاغة المقابلة في أبهى صورها؛ إذ يُرى الظّلام منبثقًا من أحشاء النّور، كما ينبثق النّور من جوف الظّلام؛ في مشهد عجيب تتعاقب فيه الأضداد، وتتبادل فيه المتناقضات مواقعها في قدرة مطلقة تُلبس اللّيل والنّهار ثوبًا واحدًا من التّقدير[1]، وتُظهر الوفاق في قلب الافتراق، لتدلّ على حكمة من يُدير الكون بتوازنٍ دقيق.

بلاغة التّعبير بالاستعارة:

تصوير مجازيّ بديع لمداولة اللّيل والنّهار في نظام الواحد القهّار

في قوله تعالى: ﴿يُولِجُ ٱلَّيۡلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيۡلِۚ﴾ استعارةٌ بَديعَةٌ؛ إذْ شُبِّه تقصيرُ أحد الزّمانين وزيادة الآخر بعمليَّة الإيلاج، تجوّزًا بليغًا[2] يُضْفي على المشهد طابعًا حسيًّا ملموسًا، فكأنّ اللّيل كائن يتسلّل في جسد النّهار، أو كأنَّ النّهارَ فَيْضٌ مِن نور يخترق حُجب الظّلام، فهو تصوير مجازيّ لتعاقبهما وتداخلهما المستمرّ، حيث شُبّه مجيء أحدهما عقِبَ الآخر من غير فاصل، بإدخال أحد الشّيئين في الآخر على وجهٍ لا انفكاكَ فيه، فاستعمل لفظُ المشبَّه به - وهو الإيلاج - وأريد به المشبَّه - وهو التّعاقب المتّصل - ، كما شبّه أيضًا ما يحدث من زيادة أحدهما على الآخر في الطّول، بما يحصل في بعض الأشياء عند إدخال شيء في غيره؛ فيزداد حجمه أو مقداره، فكانت الاستعارة بالإيلاج؛ للدّلالة على هذا الامتزاج والتّزايد المتبادل بينهما[3].

وكرّر اللّيل والنّهار مع فعل الإيلاج؛ لأنّ الإيلاج يحمل طابعًا روحانيًّا لطيفًا، يمثّل جوهر التّداخل بين الزّمنين، بينما التّكوير - كما ورد في موضعٍ آخرَ - يُجسّد البُعد الماديّ الحسّيّ لهذا التّداخل، فالإيلاج هو روح المشهد الكونيّ، والتّكوير هو جسده الظّاهر، ولذا

(1) الخطيب، التّفسير القرآني للقرآن: 14/ 749 - 750.
(2) ابن عطية، المحرر الوجيز: 4/ 131.
(3) القونوي، حاشية على تفسير البيضاوي: 6/ 92 - 93.

تكرّر ذِكْرُ اللّيل والنّهار في سياق الإيلاج، كما تكرّرا في سياق التّكوير، فكلٌّ واحد منهما يكمّل الآخر، فالتّكوير جسَدُ التّداخل؛ إذ تكويرُ النّهار وسيلة لإيلاج اللّيل، وتكوير اللّيل مدخَلٌ لإيلاج النّهار[1]. وتكرار الفعل ﴿يُولِجُ﴾ جَعَلَ بين اللّيل والنّهار نكاحًا معنويًّا، إذ هما سبب التّوليد لكلّ الحوادث والأحوال، فما من شيء في الكون إلّا وله منهما أثرٌ ونصيب، وأكّده بقوله تعالى: ﴿يُغْشِي ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ﴾ [الأعراف: 54] [الرعد: 3] في تصويرٍ لما بينَهُما من تداخل وتعالق، ولذا كان كلٌّ منهما مولِجًا ومولَجًا فيه، فهو لصاحبه أصلٌ وبَعْلٌ، فكلّ مولود في النّهار، فأمّه النّهار وأبوه اللّيل، وكلّ مولود في اللّيل، فأمّه اللّيل وأبوه النّهار[2]؛ فهما شريكان في دورة الزّمن، لا يفترقان ولا يستقلّ أحدهما دون الآخر، والتّكرار مناسب لتصوير استمرارِ هذه الظاهرة البديعة.

بلاغةُ الجِناس المعكوس في قوله: ﴿يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيْلِۚ﴾:

قوله تعالى: ﴿يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيْلِۚ﴾ من أمثلة الجناسِ المعكوس؛ وهو ضرب من التّجنيس الذي يُضْفي على الكلام مسحة من الجمال، وجَرْسًا أخّاذًا، يَرْقى بالمعنى ويزيده رونقًا وطلاوة، وقد أطلق عليه قدامة بن جعفر اسم (التّبديل)، وكلا الاسمين صادق في الوصف؛ إذ يقوم على تقديم مؤخَّر الكلام، وتأخير مقدَّمه دون إخلال بالمعنى، أو انقطاع في السّياق[3]، فكلّ من الجملة المتقدّمة - ﴿يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِي ٱلنَّهَارِ﴾ - والجملةِ المتأخرة - ﴿وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيْلِۚ﴾ - قائمة بذاتها في المعنى، متكاملة في الدّلالة[4]، ممّا يعكس انسجامًا بديعًا بين اللّفظ والتّركيب، ويؤكّد وحدة المعنى في صورة مزدوجة متعاكسة لقدرة الخالق في إحكام التّعاقب والتّنظيم، والجمع بين الوُلوجَيْنِ يأتي تشخيصًا بديعًا لكمالِ القدرة الإلهيَّة[5]؛ إذ يُبرز هذا التّناظر المتعاكِسُ أنّ الفعلين - وإن تشابها ظاهرًا - فإن كلًّا منهما يجري بتقدير مستقلّ لا يلازمه الآخر ولا يتوقّف عليه، في دلالة على أنّ القدرة الإلهيَّة لا يحدّها تكرار ولا يقيّدها تماثل. كما ينشأ عن

(1) الآلوسيّ، روح المعاني: 2/ 113.
(2) الآلوسيّ، روح المعاني: 2/ 112.
(3) يحيى العلوي، الطراز: 2/ 191.
(4) عبد الرحمن حسن، البلاغة العربية: 2/ 441.
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 21/ 185.

الجمع بين الولوجين استدامةُ ذِكْرِ الله تعالى على مدار الزّمن كلّه، بحيث لا ينقطع أذانٌ، ولا تغيب صلاةٌ في الكون لحظة واحدة، فبينما يصلّي أحدهم صلاة المغرب، يصلّي آخرون العشاءَ، وهكذا تتوالى الصّلوات بأوقاتها المتعدّدة، فيكون الله ﷻ مذكورًا في كلّ زمان ومكان، حاضرًا في قلوب العباد، مجلّيًا قُدْرَتَه وعظمته في كلّ وقت وحين[1].

تناغمُ الألفاظِ وتكاملُ المعاني في تعاقب اللّيل والنّهار

بلاغة اختلاف التّعبير بين الإيلاجِ والتّكويرِ:

استعمال فعل التّكوير في قوله تعالى: ﴿يُكَوِّرُ ٱلَّيۡلَ عَلَى ٱلنَّهَارِ وَيُكَوِّرُ ٱلنَّهَارَ عَلَى ٱلَّيۡلِۖ﴾ [الزمر: 5]؛ لِما في هذا اللّفظ من تصوير بديع لحركة التّعاقب بين الجَديدَيْن، وكأنّهما عسكران عظيمان، يتناوبان الغلبةَ، فيَقْهَرُ أحدُهما الآخرَ تارة، ويعود ذاك فيغلبه أخرى، وفي هذا التّناوب إشارةٌ إلى أنّ كلا الفريقين خاضِعٌ مقهور، لا يملك من أمره شيئًا، فلا بد إذًا من غالب قاهرٍ يسيّرهما بحكمته، ويدبّر أمرَهما بقدرته[2]، وقد ورد في الحديث: «اللهُمَّ إنّي أعوذُ بِكَ مِنْ وعْثاءِ السَّفَرِ، وكَآبَةِ المُنْقَلَبِ، ومِنَ الحَوْرِ بَعْدَ الكَوْرِ»[3] في إشارة إلى التّبدّل والانْقِلاب.

غلبة لا تدوم وتعاقب لا يُضام بين اللّيل والنّهار تحت قَهْرِ الواحد الجبّار

علّةُ وصلِ قولهِ: ﴿وَهُوَ عَلِيمُۢ﴾ بِما قبلَها:

الواو في قوله تعالى: ﴿وَهُوَ عَلِيمُۢ﴾ للعَطْف[4]، فقد عطفَت هذه الجملةَ الاسميّة على ما قبلها من جملتي إيلاج اللّيل في النّهار، والنّهار في اللّيل؛ فالقادر على تلك الأشياء محيط عالم بخفيّات الصُّدور[5]. وعُطِفَ بينهما لِما بينَهما من التَّوسُّط بين الكمالَيْن؛ فالجملتانِ

بيانُ الكمالاتِ الإلهيَّةِ

(1) الشعراوي، تفسير الشعراوي: 16/ 10117.
(2) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 26/ 423.
(3) رواه الترمذي في جامعه، برقم: (3439)، والنسائي في الكبرى، برقم: (8750)، وأحمد في مسنده، برقم: (20781)، وقال الترمذي: "هذا حديث حسن صحيح".
(4) الدّرويش، إعراب القرآن وبيانه: 9/ 453.
(5) أبو حفص النسفي، التيسير في التفسير: 14/ 288.

خبريَّتانِ، وبينهما تناسُبٌ في اللَّفظ والمعنى، فأمّا في اللَّفظ فاتِّحاد المسنَدِ إليه فيهما وهو الضَّميرُ الرّاجِعُ إلى الله تعالى، وأمّا في المعنى؛ فلِتضمُّنِهما بيانَ كمالاتِ الله تعالى وتصرُّفَهُ في خَلْقِهِ.

دلالة التَّعبير بالاسمِ المضمَرِ (هوَ):

تفرُّدُ اللهِ تعالى بِعِلْمِ خفايا القُلوبِ

أُعيدَ التّعبيرُ بالضّمير (هوَ) في قوله تعالى: ﴿وَهُوَ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾؛ لِما يحمِلُهُ مِنْ دلالة توكيديّةٍ بليغة، تُثْبِتُ الانفرادَ، وتنكر الشّريك، فكأنّ المعنى: هو وحده لا غيره[1]، العالم بخفايا القلوب، وسرائر الصّدور.

نكتةُ بِناءِ ﴿عَلِيمُۢ﴾ على زِنَة (فعيل):

سعَةُ عِلْمِ اللهِ تعالى وشدَّة إحاطتِه بالخَفيّات

اختيار وصف ﴿عَلِيمُۢ﴾ على زنة (فَعيل) يحمِلُ في طيّاته دلالةً عظيمة على المبالغة في الإحاطة والعلم[2]؛ إذ جاء هذا البناءُ ليُعبّر عن صفة راسخَةٍ ودائمَةٍ، لا عارضة ولا مؤقّتة، فاللّه تعالى ليس عالمًا بخفايا الصّدور حسب، بل هو عليم بها أزلاً وأبدًا، يعلم دقائقَها وخفاياها، وسرائرَها وظواهرَها.

الغرَضُ من التَّعبير بالجملة الاسميَّة:

عِلْمُ الله تعالى أزليٌّ أبديٌّ

جاء التّعبير بالجملةِ الاسميّة دون الفعليّة في قوله تعالى: ﴿وَهُوَ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ لِما في الجملة الاسميّة من دلالةٍ على الثّبوت والاستمرار[3]، فليس علمُه تعالى حادثًا مقيّدًا بزمانٍ، بل هو علم أزليّ دائمٌ لا يطرأ عليه تغيّر، يعلم خفايا الصّدور وسرائر النّفوس على وجه الثّبات والدّوام، في إحاطةٍ كاملة لا يعتريها نَقْصٌ، ولا يَغيبُ عنها شيءٌ.

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 19/ 262.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 8/ 204.
(3) السكاكي، مفتاح العلوم، ص: 274.

دلالةُ الباء وسرّ التّعبير بالإضافة في ﴿بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾:

الباءُ في ﴿بِذَاتِ﴾ دالّة على الإلصاقِ؛ وهو أشهَرُ مَعانيها[1]؛ لتُشيرَ إلى لزوم علمه تعالى لِما تكنّه الصّدور من خفايا ونيّات، لا يفارقها علمُه طرفةَ عَيْنٍ، ففي هذا التّعبيرِ إشارةٌ دقيقة إلى إحاطة تامّة، لا بما يظهر من الجوارح فحسب، بل بما استقرّ في الأعماق، واستكنّ في السرائر[2]. ويقوّي هذا أنَّ لفظ (ذات) - مؤنّث (ذو) - موضوعة لمعنى الصّحبة والملازمة[3].

العِلْمُ مِن الصِّفات الذّاتيّة غيرِ المُفارِقَةِ

بلاغة التّعبير بالمجاز المُرسل في ﴿ٱلصُّدُورِ﴾:

التّعبير بالصّدور مجازٌ مرسَلٌ علاقتُهُ المحليّة؛ لأنّ المقصودَ القلوبُ، والصّدور أوعيَةٌ لها، ومحلٌّ لوجودها، كما قال تعالى: ﴿وَلَٰكِن تَعۡمَى ٱلۡقُلُوبُ ٱلَّتِي فِي ٱلصُّدُورِ ۝٤٦﴾ [الحج: 46]، وإنّما آثر ذِكْرَ الصّدور؛ لأنّها أعمّ من القلوب فيما تنطوي عليه من فكرٍ وأحاسيسَ، فحيثُما ذُكِر الصّدر فإشارة إلى القلبِ والعقل، وإلى سائر القوى من الشّهوة والهوى والغضب ونحوها[4]. والتّعبيرُ بالصّدور دون القلوب وارد بموجب ما تحمله الصّدور من دلالةٍ على العقل والتّدبير، فهي موطن القرارِ والتّفكير، ومقرّ النّوايا والمقاصد، فالصّدور تُنسب إلى ذوي التّمييز من البشر، أربابِ الإرادة والتّصرّف[5]، لا إلى سِواهم من المخلوقات.

الصّدور أعمّ من القلوبِ لِما تَنطَوي عليه من فكرٍ وأحاسيسَ

دلالة جَمْعِ ﴿ٱلصُّدُورِ﴾:

ورد التّعبير بـ ﴿ٱلصُّدُورِ﴾ بصيغة الجمع؛ باعتبار ما تحتويه؛ لأنّ المراد بـ (ذاتِ) هو ما يُضْمِره كلّ فرد من بني الإنسان في

تعميمُ العِلْمِ بكلِّ صدورِ الخَلْقِ

(1) السّكّاكيّ، مفتاح العلوم، ص: 98.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 8/ 204.
(3) ابن مالك، شرح الكافية الشافية: 2/ 927.
(4) الكفوي، الكليات: (القلب).
(5) الماتريدي، تأويلات أهل السّنة: 9/ 515، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/ 25.

صدره من نوايا وهموم وخفايا، فاقتضى ذلك الجمعَ؛ لتعميم العِلْم بكلِّ صدور الخلق، لا صدرٍ بعينه، ولمّا كان المفرد (ذات) دالًّا على الجنس؛ أُضيف إلى الجمع[1] إشارةً إلى شمول الإحاطة، وامتداد العلم الإلهيّ إلى مكنوناتِ جميع النّاس.

بلاغة تناسُبِ خَتْمِ الآية مع مَطْلَعِها:

الابتداءُ بذِكْرِ الإنْعامِ، والخَتْمُ بذِكْرِ العِلْمِ

جاءت خاتمةُ الآية الكريمة: ﴿وَهُوَ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ على نسق بديع مرتبط بصَدْرِها، فكما أظهرَ اللّهُ تعالى أعظَمَ المشاهدِ الكونيَّة بتداخل اللّيل والنّهار، في تبدُّل جليّ لا ينقطع؛ بيّن في المقابل عِلْمَهُ بما هو أخفى وأدقّ، ممّا استقرّ في الصّدور، واستكنّ في النّفوس، فمَن أظهر ما خَفيَ من ظلمة إلى نور، ونور إلى ظلمة؛ قادِرٌ على أن يحيط علمًا بما خفي في سرائركم، من همساتٍ ومضمرات لا يطّلع عليها أصحابُها أنفسهم[2]. إنّ تعاقب اللّيل والنّهار آية من آيات قدرته الباهِرَة، وفيه نعمةٌ كبرى تمسّ حياةَ الخَلْقِ ومعاشَهُم، فابتدأ بذِكْرِ الإنعام، وخَتَمَ بإحاطَةِ العِلْم.

❁ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

الصّدور والقلوب:

القلبُ جارحَةٌ وإدراكٌ وعقلٌ، والصّدور تشتمل على الخفايا والنّيّات والمكنوناتِ

قوله تعالى: ﴿وَهُوَ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ معناهُ: أنّه سبحانه عليمٌ بِما تَنْطَوي عليه صدورُ خلقِه من أسرارٍ وضمائرَ ونيّاتٍ، و(ذات الصّدور) إشارةٌ إلى خفايا النّفوس وما تُضمره من مكنوناتٍ، كالأفكارِ والمقاصد. وأمّا لفظُ القلبِ؛ فهو اسم للجارحة، وتسميته كذلك؛ لأنّه وُضِعَ في موضعه من الجوف مقلوبًا[3]، ويأتي في القرآن بمعنى النّفس المدركة، والرّوح العاقلة التي يفارق الإنسانُ الحياةَ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 27/ 367.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 19/ 262، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 27/ 367.
(3) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 433.

بخروجها، كما في قوله تعالى: ﴿وَبَلَغَتِ ٱلۡقُلُوبُ ٱلۡحَنَاجِرَ﴾ [الأحزاب: 10]؛ أي: الأرواح، لا المضغة اللّحمية التي لا تفارق مكانَها، وقد يُنسب إلى القلب ما هو في حقيقته من أفعال النّفس أو انفعالاتها، ويرد ذمّ العمى في القرآن، ويُقصد به عمى القلوب، كما في قوله تعالى: ﴿وَلَٰكِن تَعۡمَى ٱلۡقُلُوبُ ٱلَّتِي فِي ٱلصُّدُورِ ٤٦﴾ [الحج: 46][1]. وخلاصة ذلك أنّ الصُّدور في القرآن تدلّ على النّيّات والضّمائر الخفيّة، بينما القلوبُ تُطلق على النّفس المدركة، والرّوح العاقلة، ويقال: تعمى القلوب، ولا يُقال: تعمى الصّدور.

(1) مكي القيسي، الهداية: 7/ 4714.

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد التاسع والخمسون،
سورة الرَّحمن من الآية 31 إلى سورة الحدِيد الآية 13
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1447هـ - 2026م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2026م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد التاسع والخمسون، سورة الرَّحمن من الآية 31 إلى سورة الحدِيد الآية 13
[إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2026.
مج. 59 ، 802 صفحة؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-648-68-0
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 59 : المجلد التاسع والخمسون، سورة الرَّحمن من الآية 31 إلى سورة الحدِيد الآية 13.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن-
ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-648-68-0
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-7377148 بتاريخ 2026/01/07م،
الهيئة الوطنية للإعلام، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
"تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري
الصادر عن المجلس الوطني للإعلام"
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي "النجار"